الثقافة والحضارة والإديولوجيا *

محمد يشوتي

أصبح لفظ الثقافة اليوم من المفاهيم الجارية الاستعمال في علوم الإنسان. لكن ما دام المعنى الذي تعطيه هذه العلوم لمصطلح الثقافة يختلف عن المعنى المستعمل في اللغة العادية، فإنه من المفيد أن نستعرض التطور الذي عرفه هذا المصطلح حتى وصل إلى المعنى الذي يؤخذ به اليوم.

يرجع استعمال لفظ الثقافة إلى أواخر القرن الثامن عشر بألمانيا في دراسات كانت تهدف إلى إعادة بناء تاريخ عام للإنسان والمجتمع منذ الأصل. ولم تكن هذه الدراسات التاريخية تهتم بالتاريخ السياسي أو الحربي بقدر ما كانت تهتم بالطقوس والنظم والأفكار والفنون والعلوم. وكان تعدد المجتمعات واختلاف الحضارات هو الدافع الأساسي وراء هذا النوع من الدراسات بحيث استطاعت أن تجمع عددا هائلا وغنيا من الوثائق حول جميع المراحل التاريخية وحول جميع المجتمعات، إلا أن الاعتقاد السائد لدى هؤلاء الدارسين هو أن التاريخ الإنساني هو أيضا تاريخ تقدم الإنسانية، وأن الدراسة المقارنة للمجتمعات والحضارات تؤدي إلى تحديد المراحل التي مر بها هذا التقدم. وعلى الخصوص فإن التاريخ المقارن سيؤدي إلى الكشف المراحل التاريخية التي مثلت أطوار التقدم الإنساني وإدراكها والتمييز بينها.

وبعبارة أوضح، كان هدف هؤلاء تحديد الفترات التاريخية التي عرفت انتشارا للمعارف وتقدما في الفنون وتهذيبا ولباقة في الأعراف وإصلاحا وتحسينا في المؤسسات والنظم الاجتماعية. في هذه الحالة يمكن اعتبار الأمر متعلقا بمرحلة متقدمة في النمو والترقي: أي أن هذا المجتمع أحرز تقدما.

ولقد استعمل لفظ ثقافة culture بالضبط للتعبير عن هذا التطور في تقدم المجتمع، وفي هذا السياق نشر أحد هؤلاء المؤرخين المشهورينJohn Christophe ADELUNG (1732-1806) كتابه سنة 1782 "محاولة في تاريخ ثقافة الإنسان" وفيه يميز بين ثمان مراحل تاريخية مر بها الإنسان، وهناك كثيرون من استعملوا الثقافة بهذا المفهوم.

ويذهب بعض الدارسين إلى التأكيد على أن هؤلاء المؤرخين أخذوا هذه الكلمة من اللغة الفرنسية التي كانت تعني في القرون الوسطى culte religieux أي التعبد الديني والتي أصبحت في القرن السابع عشر تعني خدمة الأرض أي زرعها وحرثها. وفي القرن الثامن عشر بدأ الكتاب يستعملونها للتعبير بصفة عامة عن ثقافة الفكر: أي التكوين العقلي الثقافي. في هذه الفترة إذن جاءت كلمة culture لتدل على التطور الثقافي الفكري للفرد أو العمل الضروري لهذا التطور أو التقدم. ومع ADELUNG ترجم مصطلح "الثقافة" ليشمل التطور أو النمو الثقافي والاجتماعي للإنسان وللجماعات بل للإنسانية جمعاء. وبهذا بدأ اللفظ يأخذ مفهوما اجتماعيا: يأخذ الجماعة بعين الاعتبار وإن لم يتخلص من نزعته التطورية: فكرة الحركة إلى الأمام (1).

وإذا انتقلنا من الألمانية إلى الإنجليزية فإننا سوف نجد أن مفهوم الثقافة عرف تحولا في مجال الأنتربولوجيا التي يرجع إليها استعمال هذا المصطلح وبالضبط مع Tylor في كتابه "الثقافة البدائية" الصادر سنة 1871 والذي استعمل فيه مفهوم الثقافة مرادفا للحضارة دون تمييز بينهما. ففي مقدمة كتابه يعرف الثقافة بقوله: "المقصود بالثقافة أو الحضارة ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل ما يمكن أن يكتسبه الإنسان كعضو في المجتمع ".

يظهر من هذا التغيير أن هناك تغييرا طرأ على المفهوم، فهو رغم اتسامه بالوصفية، فإنه لا يقدم الثقافة كتقدم أو تطور وإنما كمجموعة وقائع أو أحداث يمكن ملاحظتها مباشرة في فترة زمنية معينة وبالتالي يمكن متابعة تطورها كما فعل تايلور نفسه في دراساته. ولقد انتشر هذا المفهوم لدى جميع الأنتربولوجيين الإنجليز والأمريكيين. ففي أمريكا جاءت أنتربولوجيا لتعلن عن نفسها على أنها دراسة الثقافة أو علم الثقافة. فبينما يميز الإنجليز مثلا بين الأنتروبولوجيا الفيزيائية والأنتروبولوجيا الاجتماعية، نجد الأمريكيين يميزون بين الأنتروبولوجيا الفيزيائية والأنتروبولوجيا الثقافية، وهكذا تصبح الثقافة مجالا أو موضوعا يختص به علم من العلوم الإنسانية، بل أصبح اليوم مصطلحا من مصطلحات علم الاجتماع والأنتروبولوجيا معا.

أما في فرنسا فإن علم الاجتماع والأنتروبولوجيا تميزا بالتأخر في إدماج هذا اللفظ الجديد، ولعل خير دليل على ذلك أنه إلى غاية الحرب العالمية من هذا القرن نجد أن القواميس الإنجليزية تزخر بتعاريف واضحة للثقافة في حين أن مثيلاتها باللغة الفرنسية لا تشير إلى ذلك، ولم يصبح المفهوم متداولا في فرنسا إلا بعد الحرب العالمية الأولى تحت تأثير السوسيولوجيا الأمريكية.

لعل هذه اللمحة التاريخية تعيننا على توضيح نوع معين للمعنى الذي نعطيه للثقافة في علم الاجتماع والأنتربولوجيا. فهو إذن أخذ أصلا من الفرنسية إلى الألمانية ثم ترجم إلى الإنجليزية ليعود مرة أخرى إلى اللغة الأم. وهو في كل هذه الحالات يتخذ معنى جديدا بعيدا عن معناه الأول.

الثقافة والحضارة

إذا رجعنا إلى المؤرخين الألمان فإننا نجد أن مفهوم الثقافة أخذ مدلولا مقاربا لمفهوم الحضارة. ولقد اقتُرحت عدة تمييزات بينهما يمكن اختزالها في تعريفين. فالأولى تدمج داخل الثقافة مجموع الوسائل الجماعية التي يتوفر عليها الإنسان أو المجتمع للسيطرة والتأثير على البيئة الطبيعية أو العالم الطبيعي. ويتعلق الأمر بالعلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها. أما الحضارة فتشمل جميع الوسائل التي يلجأ إليها الإنسان أو يمكن أن يلجأ إليها ليمارس تأثيرا على ذاته أي لينمو معرفيا وأخلاقيا وروحيا. وفي هذا الإطار فإن الفنون والفلسفة والدين والقانون هي "مظاهر حضارية".

أما التمييز الثاني- دائما في ألمانيا- فهو تقريبا عكس ما عرضناه في التمييز الأول. فمفهوم الحضارة ينطبق على الوسائل المادية في الحياة الاجتماعية التي تفرضها ضرورات العمل والإنتاج والتكنولوجيا، أما الثقافة فتشمل المظاهر المعنوية للحياة الاجتماعية، هذه المظاهر تكون ثمرة التفكير والتصور الذهني. وإذا كان لكل من التمييزين أتباع في ألمانيا، ففي أمريكا، نجد المشتغلين بعلم الاجتماع والأنتربولوجيا أخذوا بالتمييز الثاني.

وغالبا ما نجد علماء الاجتماع والأنتربولوجيين لا يعيرون اهتماما كبيرا لهذا التمييز الذي يرون فيه تمييزا مفتعلا مبنيا على الثنائية المبهمة الغامضة التي أوحى بها ذلك التعارض الخاطئ بين الفكر والمادة ، بين المحسوس والعقلي، بين الأفكار والأشياء. إن أغلبية هؤلاء يتجنبون استعمال كلمة حضارة civilisation، بل أكثر من هذا يستعملون لفظ "ثقافة" culture بنفس معنى الحضارة ويعتبرون أن المصطلحين معا قابلان لتعويض أحدهما الآخر. وهكذا نجد مثلا C. LEVI-STRAUSS يتحدث عن "الحضارات البدائية" متبعا في ذلك مثل تايلور الذي يعطي المفهومين تعريفا واحدا.

ويمكن أن نعثر لدى بعض علماء الاجتماع والأنتربولوجيين المعاصرين تمييزا مؤداه أن كلمة حضارة تستعمل للتعبير عن مجموعة من الثقافات الخاصة تجمع بينها تشابهات أو لها أصول مشتركة، وهكذا يمكن أن نتحدث مثلا عن الحضارة الغربية، بحيث نجد فيها الثقافة الفرنسية والثقافة الإنجليزية

والثقافة الألمانية والثقافة الإيطالية والثقافة الأمريكية...إلخ. نلاحظ إذن أن مفهوم الثقافة مرتبط هنا بمجتمع معين في حين أن الحضارة تشمل مجموعات أكثر امتدادا في الزمان والمكان.

دائما في إطار تمييزات بعض المفكرين المعاصرين نجد أن مفهوم الحضارة ينطبق على مجتمعات تمثل مرحلة أكثر تقدما أو تطورا متمثلا في التقدم العلمي والتقني، والتحضر أو التمدن وتعقد التنظيم الاجتماعي، وإن كان اللجوء اليوم في العلوم الإنسانية إلى استعمال مفاهيم أخرى كالتصنيع والتنمية والتحديث أكثر منها إلى مفاهيم كالحضارة التي لا تنجو من الأحكام القيمية.

تعريف الثقافة

نلاحظ أن الثقافة التي هي موضوع علوم اجتماعية متعددة (التاريخ، علم الاجتماع، الأنتربولوجيا) تعرضت لتدخلات كثيرة جعلت التعاريف تكثر وتتعدد. لكن يمكن التوفيق بين هذه التعاريف جميعها وإعطاء تعريف إجرائي يجمع بينها. وعلى هذا الأساس يصبح مفهوم الثقافة يغطي "مجمل العادات والتقاليد الإنسانية، فهي مجمل التجربة الإنسانية المتراكمة أو المكتسبة، ومجمل التصرفات التي يتعلمها الإنسان في وسطه الاجتماعي: هي كل ما يفرزه المجتمع من أفكار وأخلاق وقيم ومعتقدات يقدمها لعناصره فيتعلمونها ويتكيفون معها. فالطفل مثلا يخضع لثقافة مجتمعه فيتعلمها، وأول مظاهره الثقافة هي الحركات والإشارات والتعابير، وبعدها تأتي اللغة".

أما عن الخلط بين مفهومي الحضارة والثقافة فيمكن القول إن الحضارة تتولد من ثقافة معينة لكنها تتعدى هذه الثقافة وتتجاوزها زمانيا ومكانيا، لا ترتبط بمجتمع معين بل يمكن أن تتعداه لتشمل منطقة جغرافية بكاملها (قارة مثلا). والحضارة هي ذات طابع تاريخي وتراكمي، بمعنى أنها قد لا تلازم المجتمع. وهي تستمر عبر التراكمات الثقافية والآثار على أنواعها بينما يكون المجتمع قد اندثر، أما الثقافة فتتصل " بالواقع الآني للقوم وإن كان هذا الواقع يستند إلى عمق تاريخي، ذلك أن تاريخية الثقافة هي من تاريخية الجماعة المتصلة بها. إن الثقافة بهذا المعنى تعبير عن الجماعة، حتى إن البعض ذهب إلى القول بأنها نمط معيشة الجماعة لا أقل ولا أكثر".

الثقافة والطبيعة:

إن الثقافة ذات طبيعة إنسانية محضة. وفي ذلك يختلف الإنسان عن الحيوان. بل إن الثقافة هي التي خولت الإنسانَ أن يكون إنسانا بالمعنى الحقيقي للكلمة. فهي تمثل بالنسبة إليه المجال الذي يمكن عن طريقه الاندماج في وسطه الاجتماعي والبيئي، وهي في ذلك تؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها

الغريزة بالنسبة للحيوان. فإذا كان الحيوان يستجيب للوقائع عن طريق الغريزة، فإن الإنسان يستجيب لها عن طريق الثقافة. فعن طريقها وبسببها تحكم الإنسان في غريزته.

الإنسان كالحيوان يعيش في وسط طبيعي له علاقة بوجوده، فهو إذن ذو تركيب مكاني، كما أن له ماضيا ومستقبلا فهو إذن يعيش في التاريخ وبذلك فهو ذو تركيب زماني، وهو يعيش في مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه فهو إذن ذو تركيب اجتماعي. هذه التراكيب (المكاني والزماني والاجتماعي) بتفاعلها وتكاملها تشكل مجتمعة الثقافة وهذا ما يميزه عن الحيوان. وبهذا المعنى فإن الثقافة ذات بعد عام لأن تراكيبها موجودة في كل مجتمع. وهي خاصة، لأن لكل مجتمع نمطا خاصا في ممارسة هذه التراكيب أو في التعامل معها أو في سيطرة أحدها، إذ قد يكون التركيب الديني مسيطرا على التراكيب الأخرى. إن من بين ما يتميز به الإنسان عن الحيوان اختلاف تصرفاته من مجتمع لآخر فيما يتعلق بالطرق التي يؤدي بها نشاطه اليومي. ففيما نجد الحيوان يمارس نماذج معينة في تصرفاته، نجد الإنسان رغم اتفاق أجناسه المختلفة في التركيب الجسمي وفي الوظائف التي تؤديها أعضاؤه، نجده يمارس تصرفات تختلف من مجتمع لآخر، ومن وقت لآخر، دون أي ارتباط لنماذج التصرف هذه بالجنس الذي ينتمي إليه. تصرفات الأكل مثلا نجدها لدى الإسكيمو تختلف عنها لدى الهنود في المكسيك، فالإسكيمو يعيشون على الأسماك واللحوم بينما الآخرون يعيشون على الحبوب والخضروات.وكذلك الأمر بالنسبة للملبس، فإن بعض القبائل في أستراليا وأمريكا اللاتينية وأيضا في إفريقيا لا تجد حرجا في عريها في الوقت الذي يعتبر مثل هذا السلوك غير ممكن في المجتمعات الأخرى.

الثقافة والرمز

إذا قلنا إن الثقافة إنسانية وإنها هي التي منحت الإنسان إنسانيته، فإن خصائص الإنسان هي قدرته على استعمال الرموز، وبالتالي فإن هذه الرموز هي خاصية أساسية في تكوين الثقافة. فطرق التصرف التي يتعلمها الإنسان والتي يدخل في تكوينها كل طرق التصرف التي يتعلمها الإنسان خلال عدد كبير من الأجيال لا يمكن أن يتحقق تجمعها إلا عن طريق خلق واستخدام الرموز. وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان، بحيث إن هذا الأخير يمكن له أن يتعلم استخدام علامات معينة ولكنها لا تصل أبدا إلى مرحلة الرموز، إذ إن التعلم لديها يظل ثابتا وغير متطور.

وبناء على هذا يمكن القول إن الحضارة في بعض مظاهرها عبارة عن تجمع عدد من نماذج التصرف التي يتعلمها الإنسان والتي نشأت أصلا بعد أن أصبح الإنسان قادرا على استعمال الرمز.

(اللون الأحمر مثلا دال على الخطر أو ضرورة الوقوف- أو رمز الحزب السياسي مثلا- طريقة بناء ما تدلنا على الهدف منه دون أن نضطر للسؤال...إلخ). فالإنسان بالإضافة إلى تعلمه عن طريق الخبرة والملاحظة والتقليد، يتعلم عن طريق استخدام الرموز وخاصة منها ما يتعلق باللغات نطقا وكتابة وهما أهم أشكال الرموز انتشارا في المجتمعات البشرية.

الثقافة والإديولوجيا:

إذا كان الدارسون يستعملون مصطلحي الثقافة والحضارة للدلالة على معنى واحد وباعتبارهما يعوضان أحدهما الآخر حتى أصبح من المتعذر التمييز بينهما، فإنه في حالات أخرى يمكن أن يُستنتج من بعض تعاريف الثقافة أن هناك علاقة بين الثقافة والإديولوجيا بل يمكن القول بأن الثقافة هي نفسها الإديولوجيا.

تعريف الإديولوجيا:

إذا رجعنا إلى ماركس في استعماله لمفهوم الإديولوجيا وجدنا هذا المفهوم يغطي مجموع ما يصطلح عليه السوسيولوجيون والأنتربولوجيون بالثقافة. هذا إذا عرفنا الثقافة بأنها كل ما يفرزه المجتمع من أفكار وأخلاق وقيم ومعتقدات يقدمها لعناصره وباختصار كل ما يمثل المظاهر المعنوية للحياة الإجتماعية. ففي **"الإديولوجيا الألمانية"** يتحدث ماركس عن الأخلاق والدين والميتافزيقا وباقي ما يمثل الإديولوجيا أي القانون والسياسة والأفكار والتمثلات والوعي الذي يكونه الناس عن الأشياء والمجتمع، وأخيرا اللغة التي تهدف إلى نقل أو إدخال هذا المنتوج الذهني في الفكر والسلوك.ويستعمل ماركس نفس المفهوم للإديولوجيا في مقدمته لكتاب**"نقد الإقتصاد السياسي"**، حيث يقول إنها تشمل "الأشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية"، باختصار إن الإديولوجيا تشمل جميع آثار الحضارة حسب تعبير GURVITCH. وفي المجتمع الطبقي، فإن الطبقة التي تسيطر على وسائل الإنتاج، تسيطر إذن وفي نفس الوقت على وسائل الإنتاج الإديولوجي. ويوضح في **"الإديولوجيا الألمانية"** أن أفكار الطبقة المسيطرة هي في كل زمان الأفكار المسيطرة.بمعنى أن الطبقة التي تمثل القوة المادية المسيطرة في المجتمع هي في نفس الوقت القوة الذهنية (الفكرية- المعنوية) المسيطرة، أي المسيطرة معنويا. فهي إذن وبحكم ملكيتها وسائل الإنتاج المادي، تملك في نفس الوقت وسائل الإنتاج الفكري أو المعنوي. فالأفكار السائدة ليسا شيئا آخر غير التعبير المثالي عن الظروف السائدة ماديا، بمعنى أوضح الظروف المادية السائدة مأخوذة كأفكار.

فالإديولوجيا هي في نهاية الأمر الوعي أو التصور أو التمثل الذي تحمله الطبقة السائدة عن الواقع تبعا لوضعيتها ومصالحها، هذا الوعي وهذا التصور الذي لا يملك المحرومون من وسائل الإنتاج المادي إلا تجرعه وابتلاعه. فالإديولوجيا إذن لا يمكن أن تكون إلا وعيا مزيفا للواقع، محرفة وباطلة في الأساس مستلبة ومخادعة. هي مفهوم خاطئ ومغلوط للتاريخ الإنساني "وهي أفيون الشعوب". نلاحظ إذن أن مفهوم الإديولوجيا عند ماركس يرادف مفهوم الثقافة لدى الأنتربولوجيين وعلماء الاجتماع.

لكن إذا ابتعدنا عن نظرية ماركس ووجدنا أن هناك من حاول إعطاء تعريف للإديولوجيا أقل عمومية بحيث يجعل منها جزءا أو عنصرا من الثقافة عوض أن تكون مرادفة لها. فهي كما يراها البعض نسق من الأفكار والأحكام الظاهرة والمنظمة غالبا التي تهدف وصف وتفسير وتأويل أو تبرير وضع فئة اجتماعية ، كما أنها ترسم توجيها للحركة التاريخية لهذه الفئة أو الجماعة وبهذا يقترب مفهوم الإديولوجيا مما يسمى ب "تعريف الحالة الوضعية" أي الطريقة التي تفسر بها فئة أو جماعة معينة الوضعية الآنية لهذه الفئة وهي تأخذ صفة المذهب. أي عقلنة النظرة لهذا العالم أو لنسق من القيم.

في هذا السياق لم تعد الإديولوجيا مرادفة للثقافة ككل، وإنما هي جزء منها كما أنها ليست بالضرورة مرتبطة بالمجتمع كله كما يقول ماركس الذي جعل منها إنتاج الطبقة الاجتماعية السائدة. يمكن إذن أن نتحدث عن إديولوجية فئة محدودة كحزب سياسي أو نقابة عمالية، كما يمكن الحديث أيضا عن إديولوجية مجتمع بكامله (وطن، عرق، أمة...). لكن إذا لم تكن الإديولوجيا إلا جزء من الثقافة فإنها تشكل مركز ونواة الثقافة وجوهرها حسب تعبير Fernand DUMOND. ففي الإديولوجيا وعن طريقها تكون الفئة تصورا عن نفسها وفي نفس الوقت تظهر تطلعاتها وأهدافها. وفي هذا الإطار نكون بعيدين عن مفهوم ماركس للإديولوجيا كوعي مزيف للواقع. فالإديولوجيا هي دائما عنصر تقسيم وصراع داخل فئة أو بين فئات داخل مجتمع في حين تقتضي الثقافة والقيم إجماعا نوعا ما طبيعيا بين جميع فئات المجتمع.

وظيفة الثقافة

إن للثقافة وظيفة اجتماعية وسيكولوجية. أما الوظيفة الاجتماعية الأساس فتتمثل في كونها تؤلف بين أناس متعددين في إطار جماعة خاصة. هناك طبعا عوامل أخرى تؤدي إلى نفس النتيجة كالقرابة الدموية والجوار وتقسيم العمل، إلا أن هذه العوامل التي يمكن أن نسميها عوامل موضوعية

تتغير هي ذاتها ويعاد تأويلها في إطار الثقافة ومن لدنها. فهي التي تمنحها مدلولا ومغزى أكثر من مغزاها الأصلي. وهكذا تصبح العلاقة الدموية علاقات قرابة فتمتد وتتعقد بالزواج أو الاقتران المحرم، بالقواعد التي تنظم الزواج المشروع والزواج المحرم وبالضوابط التي تتحكم في العلاقات بين أفراد فئة تجمعها القرابة. فمن علاقات بيولوجية هي العلاقات الدموية أعد الإنسان عبر الثقافة أشكالا متراتبة متعددة، وكذا الأمر بالنسبة للجوار في السكن وتقسيم العمل والتي استغلتها الثقافة أو استعملتها لتخلق فكرة الوطن والملكية والتدرج الاجتماعي والمكانة الاجتماعية والطبقة الاجتماعية. هذه طبعا ليست مجرد أفكار ولكنها وقائع ساهمت الثقافة في خلقها والحفاظ عليها.

من هذا المنظور، تبدو الثقافة كعالم أو ككون ذهني، أخلاقي، معنوي ورمزي مشترك بين أناس متعددين يستطيعون التواصل عبره، وبفضله يعترفون بعلاقاتهم وبمصالحهم المشتركة، باختلافاتهم وتعارضهم، ويحسون منفردين أو مجتمعين أنهم أعضاء في كيان واحد كيان يتجاوزهم جميعا، هذا الكيان هو ما يسمى بـــ " الفئة أو الجماعة أو المجتمع".

*- مر زمن ليس قصيرا على كتابة هذا المقال ذلك أنه لما أردنا ثبت المراجع المعتمدة في كتابته وجدنا صعوبة في تذكرها إلا الا القليل الذي نحيل القارئ عليه

Guy ROCHER, Introduction à la sociologie générale, Tom I, Collection Points, éd.HMH Ltée1968
J. CAZENEUVE, Sociologie du rite,éd. PUF, Coll .Sup. 1971
E. SAPIR, Anthropologie, éd. De minuit, coll. Points 1967
R. BASTIDE, Anthropologie appliquée, Petite Bibliothèque Payot, 1971

1 - يلاحظ أن مصطلح "الثقافة" يرجع إلى التاريخ وليس إلى الفلسفة كما هو الشأن بالنسبة لكثير من مصطلحات علوم الإنسان.